

أبو بكر الصديق منقذ للسلام

د. إبراهيم مركات

تولية أبي بكر (1) :

ما أن بلغ سكان المدينة نعي الرسول (ص) حتى عمت الدهشة سائر الاوساط اذ لم يصدق الناس موت النبي حتى خطب فيهم أبو بكر يبلغ اليهم صدق النبأ ويذكرهم بالآية الكريمة : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » . ثم يقول : ايها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ، ثم ، وعظ الحاضرين من غير ان يثير قضية الخلافة ، ويظهر ان هذا الخطاب قد القاه أبو بكر في المسجد النبوي أو حوله ، وكان عمر بن الخطاب ممن لم يصدقوا موت الرسول حتى سمع خطاب أبي بكر وما ذكر به من آيات حول موت الرسول والثبات على دينه . واثناء ذلك ، وقبل تجهيز جنازة الرسول (ص) كان الانصار مجتمعين في سقيفة بني ساعدة ، وجاء منهم الى أبي بكر ، عاصم بن عدي ، وعويم بن ساعدة ، يخبران أبا بكر بأن الانصار يهمون بمبايعة سعد بن عباد من كبار زعمائهم وهو حينئذ مريض ولا يخفى طموحه الى الخلافة ، وانتقل أبو بكر وعمر فوراً الى سقيفة بني ساعدة بينما لزم علي وطلحة والزبير بيت فاطمة ، غير ان سعد بن عباد وهو زعيم الخرج لم يظهر الدعوة لنفسه مباشرة ، بل تولاه عنها الحباب

(1) انظر الطبري : تاريخ م. 2 ، 199 - 204 و 207 - 210 . المقدسي : البسمة والتاريخ 5 ، 64 . ابن عبد ربه : العقد الفريد 5 ، 10 . ابن الاثير الكامل : 220 ، 2 ابن خلدون ، تاريخ : 2 ، 853 .

أبن المنذر الذي اقترح تقسيم الخلافة بين الانصار والمهاجرين ، اى بترشيح خليفة عن كل فريق ، وعندئذ خطب ابو بكر خطبته المعروفة التي اعلن فيها اسبقية المهاجرين الى الاسلام وامتناع العرب عن الاعتراف بسلطة خلافة لا تنتمي الى قريش ، ثم رشح للخلافة عمر بن الخطاب وابا عبيدة بن الجراح الذي شغل منصب امين بيت المال فى الحكومة النبوية مثلما سيسفله فى عهد ابي بكر ، فبادر عمر الى مبايعة ابي بكر وهو يقول: ما كان أحد ليؤخرك عن مقامك الذي اقامك فيه رسول الله (2) (ص) .

وإذا كان الانصاري حباب بن المنذر قد هدد قبل خطاب ابي بكر باستعمال القوة لتقسيم الخلافة بين الانصار والمهاجرين ، فان المفاجأة الكبرى التي انقذت الموقف بعد مبادرة عمر ، ولربما سبقتهما على بعض الروايات (3) ، هي خطاب الزعيم الاوسي بشير بن سعد الذي قال فيه : « يا معشر الانصار ، أنا والله وان كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى الدين الذي ما أردنا به الا رضا ربنا وطاعة نبينا والكبح لانفسنا ، فما ينبغي أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عرضا ، الا أن محمدا (ص) من قريش ، وقومه أولى به ، وايم الله لا يراني الله انازعهم هذا الامر أبدا ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » .

وهكذا راجع الاوسيون انفسهم فخشوا هيمنة الخزرج فى حالة ما اذا تولى السلطة أحدهم ، وهذا ما جعلهم يبادرون الى مبايعة ابي بكر ، وبذلك انقذت الخلافة من بوادر العصبية القبلية الضيقة على الرغم من استئثار قريش بها لفترة طويلة ، ذلك أن ابا بكر وعمر ، ارتفعا كخليفتين عن هذه الروح البغيضة وسارا على نهج اسلامي وانساني مثالي ، ولربما لو صفا الامر لعلي لسار فى نفس الخط ، ولقد سار فيه فعلا ، بينما كانت الاحداث تهز من كيان الخلافة هزا .

ومنذ الآن ستتخلى المدينة عن كل مطالبة خلافة مباشرة ، بل أن الذين سيحاولون فيها بعد أن يستغلوا جانبها لصالحهم ، هم بالذات ، عناصر مكية من كبار المهاجرين ، ولما كان سعد بن عباد قد ايقن أن

(2) ابن عبد ربه م. م. ص : 11 .

(3) ابن الأثير : م. س. ص : 223 .

(4) ابن عبد ربه : م. م. ص : 13 .

الامر قد خرج من يد الانصار نهائيا ، فقد ترك المدينة مغاضبا بعد ان تعرض فيما قيل للاعتداء داخل التجمع الذي شهد احداث بيعة ابي بكر فانسحب الى الشام ، ويروي هشام الاسلمي ان عمر بن الخطاب بعث رجلا يدعو سعدا الى البيعة ، وانه فوض اليه قتله ان ابي ، ويضيف هشام ان سعد بن عبادة رفض بيعة ابي بكر ، فرماه الرجل بسهم فقتله (5) .

وبعد بيعة سقيفة بني ساعدة دعا عمر بن الخطاب الى اجتماع عام بالمسجد النبوي وخطب في الحاضرين يدعو الى بيعة ابي بكر بيعة عامة ، وهذه اول بادرة في التفريق بين البيعة الخاصة والعامة في الاسلام ، وهي اشبه ما يكون بترشيح رؤساء الدول اليوم في مجلس تمثيلي ، ثم بطريق استفتاء عام .

وتبرز شخصية عمر بن الخطاب كنصير بالغ الاهمية للوحدة الاسلامية ولشخص ابي بكر ، منذ احداث سقيفة بني ساعدة ، وبحق كان عمر بن الخطاب ، الرجل القوي في حكومة ابي بكر ، وقد قام علي بن ابي طالب بدور مشابه في ايام عثمان ، بينما فقد هو نفسه شخصية مناصرة مثل شخصية عمر بالنسبة لعهد ابي بكر .

وهكذا كان على ابي بكر ان يضمن بيعة الامة بالمدينة اولا ، ثم في مجموع شبه جزيرة العرب من طريق الولاة الذين تركهم الرسول (ص) .

وتلكا علي والعباس وطلحة والزبير وعدد من بني هاشم في البيعة رغبة في ان يصير الامر لعلي وهو اقرب الناس الى الرسول نسبا وقرابة واحد السابقين الاولين الى الاسلام ، ولكن ما لبثوا ان بايعوا ابا بكر ، وان تأخر علي عن البيعة مدة ستة اشهر فيما قيل ، وفي بعض الروايات ان ابا بكر قال له : اكرهت امارتي ؟ فقال : لا ولكني آليت ان لا ارتدي بعد موت رسول الله (ص) حتى أحفظ القراءان ، فعليه حبست نفسي (6) ، واذا صحت هذه الرواية فتكون مجرد تملص ذكي من البيعة المعجلة ، ومهما يكن من امر ، فان عليا وغيره من كبار الصحابة لم يتخلوا موقفا معاديا من ابي بكر قد يؤدي الى تكتلات مناهضة او متعارضة .

(5) المقدسي : م . م . ص : 66 .

(6) عقيد : 5 ، 12 .

وبعد توليته ، قام أبو بكر خطيباً في المسجد النبوي يشرح باقتضاب وروعة بيان مع قوة عزيمة تغلي ايما ، خطته ونظرته الى المسؤولية العليا التي انيطت به ، وقد أصبح خطاب التنصيب تقليداً معمولاً به بعده لدى الخلفاء والولاة ، وخطبة تولية أبي بكر معروفة في أكثر من مصدر ، وقد القاها يوم تجهيز دفن الرسول عليه السلام وبعد دفنه مباشرة يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الاول في السنة الحادية عشرة (7) .

واذا كان أبو بكر الصديق قد حظي بالخلافة المباشرة للرسول (ص) في غمرة الموقف السلمي الذي وقفه عدد من زعماء مكة وعلى رأسهم أبو سفيان على الأقل لفترة محدودة فإنه الرجل الذي ارتبطت حياته الخاصة ونضاله المستميت بحياة الرسول وكفاحه المثالي ، مدة تناهز ثلاثاً وعشرين سنة من الاسلام ، وفترة قد تتجاوزها قبل الاسلام وهذا الشرف الفريد لم يحظ به أى صحابي آخر ، فهو ترب النبي واحد أقرب المعارف اليه في مهنة التجارة التي زاولها كلاهما قبل الاسلام . ولم يكن أبو بكر في الواقع الا تاجراً في المجتمع القرشي الذي ينتمي الى البورجوازية الصغيرة ، ولكن كان بإمكانه ان يعيش راضياً بثروته وتجارته بعيداً عن المغامرة التي زج فيها نفسه والتي أدت به في النهاية الى ان يترك تجارته وماله بمكة ليهاجر فقيراً ، الى المدينة مع الرسول . وقد كان أبو بكر الرجل الوحيد الذي أسلم على يد الرسول قبل أى رجل آخر ، والذي لم يستفسر مطلقاً عن ماهية النبوة المحمدية وأهدافها مثلما فعل الآخرون ، وكان من حقهم ان يفعلوا ، ولذلك أطلق عليه رفيقه العظيم لقب الصديق فلزمه حياً وميتاً وسماه عبد الله وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة (9) .

ويوصف أبو بكر في الرواية الاسلامية ، وفي غيبة أى رسم تصويري وهو محرم في الاسلام لضرورة دينية مؤقتة ، بأنه كان أبيض نحيف الجسم خفيف العارضين أجناً ، معروق الوجه غائر العينين ناتئ الجبهة عاري الاشاجع محووض الفخذين أقنى يخضب بالحناء والكتم جميل فارع القامة .

(7) تحدثت المصادر السابق ذكرها ، وغيرها عن اواخر ايام الرسول وموته ودفنه .

(8) عقود : 5 ، 9 ، 10 . الكامل : 2 ، 224 .

(9) المقدسي : م . م . ص : 76 .

وهذه الصفات التاريخية كافية لان تقدم صورة اقرب ما تكون الى
الوضوح عن شخصيته ، بالاضافة الى ممارساته ومواقفه التاريخية ، فهو
متزن الشخصية ذو ثقة بنفسه لا ينفع لا نادرا ولا يلجأ الى الهجوم
الشخصي ولا يشيد بأرائه ويتحصر بصورة متناهية فى الدقة على احترام
تعاليم الرسول وسنته ، وتتسم مواقف السياسية بالحكمة وجودة الراي
وحسن الاستشارة ، ويحرص على ان يقدم احسن مثال عما يجب ان يكون
عليه رئيس دولة شرفته الامة بثقتها وأخذ من الاسلام دستورا لها .

ولا جدال ان لشخصية ابي بكر وسيرته تأثيرا لا يمكن اغفاله ، فى
خلفه ومساعدته عمر ، وان كان لهذا الخلف جوانب غير قليلة من الشخصية
المتميزة . وينبغي ان نلاحظ على سبيل المقارنة ان عثمان بن عفان لم
يقم بأى دور يذكر فى احداث بيعة ابي بكر على الرغم من حضوره دفن
الرسول ونزوله الى قبره ، وهو على اى حال من أوائل المبايعين لابي بكر .

توجيه جيش أسامة الى فلسطين (10) :

كان الرسول عليه السلام قد هيا جيشا لقتال الروم داخل فلسطين،
وبالذات فى المنطقة التي شهدت معركة مؤتة ، وكان من تعليمات الرسول
لهذا الجيش القيام بشن الغارات على أرض البلقاء واحراق مزارعها وسبي
نساءها وذرائعها ، وكان الجيش يضم فئة من الانصار والمهاجرين يقودهم
شاب دون العشرين هو أسامة بن زيد الذي قتل أبوه فى مؤتة كما قتل
عبد الله بن رواحة وجعفر بن ابي طالب وكلهم حمل راية القيادة فى هذه
الحملة . لكن أسامة لم يتمكن من القيام بمهمته نظرا لوفاه الرسول اثناء
استعداد الحملة للتحرك . وكان اول عمل عسكري باشره أبو بكر كخليفة،
هو إعادة حشد جيش أسامة فى مكان يدعى الجرف بعيدا عن المدينة
بخمسة كيلومترات ، باتجاه الشام ، وقد تضايق الانصار والمهاجرون من
ان يقودهم شاب حدث ، وعبروا عن رغبتهم فى استبداله بقائد محنك ،
وكلفوا عمر بن الخطاب ببلاغ رغبتهم هذه الى الخليفة ، غير ان ابا بكر
رفض استبداله ، وكان من رأي الجماعة ان تؤخر المواجهة ضد
البيزنطيين حتى لا يفاجأ المسلمون فى المدينة بهجوم العناصر المرتدة ،

(10) الطبري ، تاريخ : م. 2 ، 211 - 213 . المقدسي ، البدء والتاريخ : 5 ، 152 .
ابن الاثير الكامل : 2 ، 226 . ابن خلدون ، تاريخ : 2 ، 856 . دحلان ، الفتوحات
الاسلامية : 1 ، 3 ، 5 .

وكل ما فعل أبو بكر أن عرض على أسامة استبقاء عمر بالمدينة ، وقال : لو خطفني الكلاب والذئاب لانفذته كما أمر به رسول الله ولا أرد قضاء قضى به رسول الله ، وكان هذا أول ما ظهر من صرامة أبي بكر حيث يحب الصرامة ، لأنه أراد أن يظهر أن الإسلام يحتفظ بقوته النوعية والعديدية ، حتى مع الصدمة التي حلت بموت الرسول ، ثم هناك تعليمات عليا من القائد الأعلى السابق ، فيجب أن تنفذ خصوصا وهو صاحب رسالة ودعوة شاملة وشيع أبو بكر أسامة وهو ماش ، ورفض أن يركب أو أن ينزل أسامة عن فرسه وقال : ما علي أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله ، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمئة حسنة تكتب له ، وأوصى أبو بكر الجيش بتجنب الفدر والتمثيل بالجنث وقتل الاطفال والشيوخ والنساء ، كما أوصاهم بعدم التعرض للرهبان المسالمين في معابدهم ، ولم تكن هذه الحملة تتجاوز ثلاثة آلاف محارب ، وقامت بغارات خاطفة اتيح فيها لاسامة أن يقتص من قتلة أبيه ، واستمرت غيبتها عن العاصمة حوالي شهر ونصف بعد وفاة الرسول (ص) . وكان لهذه الحملة تأثير نفسي ايجابي على العرب بالرغم من احداث الردة الخطيرة ، ومهما يكن من أمر ، فإن قلة عدد هذا الجيش ينبيء عن التراجع البالغ الخطورة ، والذي وقع في صفوف الاسلام بموت الرسول . **أما أسامة نفسه ، فسيلتحق بخالد ابن الوليد في حروب الردة ، وسيقوم في عهد أبي بكر بدور طلائعي بعد عودته من فلسطين .**

وقد التزم أبو بكر ومستشاروه جانب الحذر والحيلة خلال الفترة التي استغرقتها حملة أسامة ورجوعه ، فلم يغامر بحشد احتياطة الهزيل لمهاجمة القبائل التي ارتدت في كل مكان عبر جزيرة العرب ، والحق أن الاضطرابات لم تبدأ بموت الرسول عليه السلام ، وإنما بدأت في آخريات حياته ، وكانت اسبابها الظاهرة ما كان من ادعاء بعض الكهان وأشباههم للنبوة ، ولكن الاسباب الخفية كانت أهم من ذلك كما سيتضح .

ارتداد العرب :

فشلت ظاهرة التنبؤ في أواخر حياة الرسول كما مر ، ثم استفحلت بموته مباشرة ، والذين تنبأوا في العهد النبوي هم : مسيلمة الكذاب

وطليحة بن خويلد الاسدي والاسود العنسي ، وتبع هؤلاء فى عهد ابي بكر كل من سجاح بنت الحارث ، ومالك بن نويرة .

1 - ظهر مسيلمة الكذاب فى بني حنيفة باليمامة التي عدها بعضهم (12) داخلة فى منطقة نجد . واسمه مسيلمة بن حبيب ، وكان من وجوه قومه بني حنيفة ، وكان فيما قيل يطوف بالاسواق ، يتعلم قول الشعوذة وأشياء من التنجيم ثم يموه على قومه بما تعلمه فيرون له بذلك خوارق لبساطة عقولهم ، فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة ، قدم وفد بني حنيفة ، برفقتهم مسيلمة على الرسول (ص) فدخلوا فى الاسلام ، وكان من شدة ثقة مسيلمة بنفسه ، وجرأته ان طلب من النبي ان يجعل له الامر بعده وكان فى يد النبي عسيب نخل ، فرد عليه : لو سألتني هذا العسيب الذي فى يدي ما أعطيتكه . ثم اصحب النبي وفد بني حنيفة رجل اسمه الرجال بن عنفوة لتفقيه بني حنيفة شؤون الدين ، ولكن مسيلمة ما لبث ان نادى بنفسه نبيا وحدث قرآنا تافها وتابعه ابن عنفوة هذا حتى كان أخطر من مسيلمة فى دعايته ، وكان بنو حنيفة فى عدد كبير لا يقل عن أربعين الفا (13) ، وقد تأخر قتال مسيلمة فى عهد ابي بكر لهذا السبب ، ولاشتغال الجيش بحروب الردة . وقد لقي المسلمون عناء شديدا من حرب مسيلمة ، وادار عمليات الزحف ضد بني حنيفة ، خالد بن الوليد بمساعدة عدد من قادة الانصار والمهاجرين ، وتكشفت المعارك عن مقتل اعداد كبيرة من الجانبين وتقدر الرواية الاسلامية قتلى بني حنيفة بما لا يقل عن عشرين الفا، وهو عدد لا يمكن تصويره باعتبار ان عدد المحاربين من المسلمين لم يكن يتجاوز بضعة آلاف والأسلحة متكافئة ، غير ان الذي لا يمكن دحضه ان الفريق الاسلامي كان يعتبر مسألة القضاء على مسيلمة وأنصاره قضية مصير بالنسبة للاسلام المهدد ، ولذلك احتمل الجيش الاسلامي تضحيات بشرية تقدر بعدة مات بينها العديد من القراء الذين أسهموا فى هذه المعارك ، وكان مقتلهم باعثا اى قيام ابي بكر بعملية جمع القراءان ، وتعطي الرواية الاسلامية تفاصيل واقية عن هذه المواجهة المصيرية لا غناء فى تكرارها هنا ، وكان من التعاليم التي جاء بها مسيلمة ان حط عن

(11) ابن الاثير ، الكامل : 2 ، 227 .

(12) ياقوت ، معجم البلدان ، لفظ اليمامة .

(13) الكامل : 2 ، 244 .

اتباعه الصلاة ، واحل لهم الخمر والزنا ، وتعتبر ثورة مسيلمة الانحرافية
أول بادر تمهيدية لارتداد العرب ، وقد حصلت فى حياة الرسول نفسه ،
وعلى كل فان اسلام بني حنيفة لم يتم عمليا الا بعد وفاة الرسول (ص) .

ومعارك اليمامة التي لم تستمر فى الواقع سوى ما دون اليوم ،
وشملت الميدان المكشوف وجملة من الحصون التي التجأ اليها انصار
مسيلمة ، وكان مقتل مسيلمة على يد وحشي الذي سبق ان قتل حمزة
ابن عبد المطلب فى غزوة أحد ، وكان وحشي حينذاك مشركا . ووقعت
أحداث اليمامة هذه على الأرجح فى أواخر السنة الحادية عشر (14) ،
وتجاوز قتلى المسلمين فيها ألفا ومائتين ، وكان مسيلمة قد هزم
المسلمين فى لقاء أولي بقيادة عكرمة بن ابي جهل قبل ان يتولى الحملة
ضد بني حنيفة خالد بن الوليد .

2 - الاسود العنسي واسمه عيهلة بن كعب ، والعنسي (بسكون
النون) نسبة الى عنس من بطون مذحج (بفتح الميم وكسر الحاء) وهي
من القبائل الكبرى باليمن وكان كاهنا يعتم بخمار رفيق ويركب حمارا
اشتهر به ، وكثيرا ما يظهر قادة ثورة او حركة مناهضة فى الاسلام بشكل
معائل أى بحمار يركبونه تميزا . وتنبا الاسود فى السنة العاشرة ، وزعم
انه يتلقى الوحي من ملكين اسمهما سحيق وشقيق ، وكان لا يفتسل كما
كان لا يصلي ويتعاطى الخمر ويحلها لاتباعه . . ويبدو ان الاسود هذا تمكن
فى وقت قصير من بسط تفوذه على مجموع اليمن وسائر المناطق الواقعة
على المحيط الهندي من شبه جزيرة العرب ، وكل ذلك حدث فى الشهور
الاخيرة من حياة الرسول (ص) ووجه النبي تعليماته الى حضرموت التي
تزوج منها معاذ بن جبل ، حتى يتولى الولاة الموجودون بها محاربة الاسود
او اغتياله ، وهكذا تولى فيروز الديلمي بن بادان (العامل الفارسي السابق
الذي أسلم على يد لارسول واحتفظ الى موته بحكم اليمن) تدبير مؤامرة
مع زوجة بادان التي أصبحت زوجا للاسود بعد موت زوجها السابق ،
لقتل العنسي ، ونجحت المؤامرة التي تروىها المصادر فى شكل مثير ،
وعندما ورد البشير على المدينة بنبا تصفية الاسود العنسي كان الرسول

(14) انظر بشأن مسيلمة : الطبري ، تاريخ : 3 ، 244 . ابن الاثير الكامل : 2 ، 243 .
ابن خلدون ، تاريخ : 2 ، 876 . دحلان ، الفتوحات الاسلامية : 1 ، 13 . عمر رضا
كحالة ، معجم قبائل العرب ، مادة حنيفة ، ياقوت ، معجم البلدان ، مادة اليمامة .

قد التحق بجوار الله بعد ان اخبر هو نفسه ، بمقتل الاسود ، وكانت هذه أول بشرى فيما قيل يتلقاها أبو بكر الخليفة (15) . وكانت كندة أيضا من القبائل التي تابعت الاسود بسبب خطأ ارتكبه عامل الصدقة فى وسم إحدى الدواب من غير مبرر .

وهكذا يكون الجزء الأكبر من شبه جزيرة العرب قد أعلن تملصه من الاسلام بشكل أو بآخر منذ أواخر عهد الرسول ، وابتداء من السنة التاسعة .

3 - طليحة بن خويلد الاسدي (16) نسبة الى قبيلة اسد (بن خزيمه) الضاربة شمال شرقي شبه جزيرة العرب . وهي من القبائل ذات البأس فى الحروب مثل حنيفة ومذحج وغيرها . وكان طليحة كاهنا فتنبأ فى أواخر أيام الرسول وادعى ان جبريل ينزل عليه بالوحي وفى رواية ذا النون . وبعد ان تمكن ضرار بن الازور عامل الرسول من اخضاع اغلبية بني أسد ، عجز عن قتل طليحة ، وأثناء ذلك توفي الرسول فاستفحل أمر طليحة واستعاد انصاره ، وشمل حزبه طيء وهوازن وغطفان فضلا عن أسد . ثم عرض على أبي بكر ان يضع الزكاة عن انصاره فرفض ، ووجه اليه خالد بن الوليد فى كتيبة فيها عدى ابن حاتم الذي سرعان ما ضمن حياذ قومه ثم عودتهم الى الصف الاسلامي مومنين ومحاربين ، وبعد مواجهة أولية ضد طلائع انصار طليحة قتل حبال أخوه كما قتل من الجانب الاسلامي عكاشة بن يحضن وثابت بن اقوم الانصاري بتدبير من طليحة ، وأخيرا تم اللقاء العام ببزاخة (بضم الباء) وهي ماء لبني أسد ، وكان بعض انصار طليحة يحثونه على الاستنجاد بجبريل ، فلما تبين ضعفه انسحب مع امرائه فارا الى الشام الى ان عاد الى الاسلام بعد وفاة أبي بكر ، وبايع عمر بن الخطاب ثم اسهم فى حروب الجيش الاسلامي ضد الفرس الى ان استشهد فى معركة نهاوند سنة 18 ، وسرعان ما عادت أسد الى الاسلام بعد فرار طليحة ، ولم يسب من نسائهم وذرائعهم أحد ،

-
- (15) الطبري ، تاريخ : 3 ، 220 . ابن الاثير الكامل : 2 ، 227 - 230 . المقدسي ، البدء والتاريخ : 65 ، 154 - 155 . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ذحج ، ابن خلدون ، تاريخ : 2 ، 860 - 862 . كحالة ، معجم قبائل العرب ، مادة عنس ، ومذحج .
- (16) الطبري ، تاريخ : 3 ، 227 . ابن الاثير م . م . ص : 239 . المقدسي م . م . ص : 157 .

وقد كانوا لاجئين الى حصون بني أسد خلال المواجهة التي كانت حول
بزاخة فى السنة 11 هـ . وقد شملت منطقة تأثير طليحة أيام تنبئه جزءا
كبيرا من الشمال الشرقي لجزيرة العرب .

4 - شجاع بنت الحارث التميمية (17) .

كانت مضارب تميم بجوار قبائل غطفان فى شمال شرقي جزيرة
العرب ، وقرب منطقة البحرين . وقدم وفد منهم على النبي (ص) فى
السنة التاسعة ، وبينهم الاقرع بن حابس والزبرقان ابن بدر ، وعطارد بن
حاجب ، كلهم من زعماء عيثم التي تنتمي اليها سجاح ... وكان اخوالها
من تغلب ، وكل من بني تميم ، وتغلب من أهم القبائل وأشدّها شوكة ،
وكانت سجاح على دين النصرانية ، بل قيل كانت لها قدم راسخة فى
اللاهوت المسيحي ، تنبأت بعد وفاة الرسول وأحدثت اسجاءا توهم اتباعها
بانها من الوحي ، واستغلت فرصة ارتداد من ارتد من تميم ، كما ناصرها
قسم من بني تغلب ، واستعدت لغزو المدينة ، وكان مسيلمة الكذاب فى
هذه الاثناء قد برز كمتنبئ فى بني حنيفة ، فتحالفا وتزوجا حيث تصبغ
الرواية العربية على زواجهما روحا أدبية طريفة ، وكانت سجاح تهم بغزو
اليمامة بعد ان صدها مستشاروها عن غزو المدينة ، فتحول غزو اليمامة
الى زواج من متنبئها وبالتالي الى غزو عاطفي لمنافسها . كذلك تضيف
نفس القصة أن مسيلمة أصدقها ترك صلاتي الفجر والعشاء ، وأدنت هي
بنورها للمرأة فى زوجين مقابل أربع نساء للرجل (18) . وصالحها مسيلمة
على نصف غلات اليمامة .

كذلك وادعها مالك بن نويرة ، وهو عامل صدقة سابق عينه الرسول .
وكان يجمع الصدقات من بني تميم ، ثم توفي الرسول فرد مالك الى تميم
ما جمع منهم . وبعد انصراف سجاح بما حصلت عليه من أموال اليمامة
توجهت الى الجزيرة عند اخوالها من تغلب ، ثم لا يعرف مصيرها بعد
ذلك ، ويقال أنها عادت الى الاسلام وتأخرت الى عهد معاوية ، وبمجرد
انصرافها من اليمامة هاجمت قوات خالد بن الوليد جيوش مسيلمة ، أما

(17) ابن خلدون : م. م. ص : 869 . ياقوت ، معجم البلدان ، مادة
بزاخة ، دهلان م. م. ص : 8 . كحالة م. م. مادة اسد .

(18) المقدسي : م. م. ص : 165 .

مالك بن نويرة الذي ندم على تصرفه فقد أعلن توبته ، ولكن خالد بن الوليد عجل بقتله حيث تضطرب الروايات بشأن سبب إعدامه ، ف قيل ان خالد طمع في زوجته التي كانت فائقة الجمال ، كما قيل ان خالد لاحظته يحدث باستمرار عن الرسول بقوله : صاحبكم ولا يسميه أو يعطيه صفة الرسول ، وقيل أيضا أن سوء تأويل في بعض تعليمات خالد بسبب اختلاف في اللهجة أدى الى إعدام مالك بن نويرة ، وقد أدى هذا التصرف الى استياء عمر بن الخطاب الذي ألح على أبي بكر في الاقتصاص من خالد ثم في عزله . فاجابه بحزم : ما كنت لاشيم سيفاً سله الله على الكافرين ، فأرفع لسانك عن خالد ، وقد اعتذر خالد عن تصرفه إزاء مالك ، وقبل الخليفة عذره ، وتزوج خالد زوجة مالك ، وهذا الذي أثار شك بعض المؤرخين في تعجيل قتل مالك (19) .

والحق ان ظهور حركة ادعاء التنبؤ زعزع من كيان المجتمع الاسلامي منذ ان ظهر اول هؤلاء الادعاء وهو مسيلمة الكذاب في السنة التاسعة ، وقد شغل الرسول بمواجهة الجهات الخاضعة للحكم البيزنطي في تخوم شبه الجزيرة كما شغل في نفس الوقت باحداث اليمن واستقبال الوفود الداخلة في الاسلام ، ونلاحظ ان ثلاثة من المتنبئين ظهر في المناطق قريبة من المدينة شمالا وشرقا ، ولهذه المناطق تعامل اقتصادي واجتماعي مع الفرس والروم ولا سيما مع العرب الخاضعين لسلطتهم المباشرة . وهكذا فهوازن واسد وغطفان مثلا ، كانت تعادي النبي (ص) ولم تدخل في الاسلام الا بعد فتح مكة ، وكنا نجدها باستمرار في صف قريش قبل اسلامها ، وسجاج تنتصر بتغلب ، وهم نصارى ، ولا شك ان بقاء قريش على الاسلام بعد وفاة الرسول جعل من هؤلاء المتنبئين بديلا لقيادة الصراع ضد الاسلام ، أما ثورة مدحج التي قادها الاسود العنسي فهي اقرب الى بعث جديد للملكية الحميرية منها الى مجرد حركة عقائدية ، واليمن عز عليها ان تطايط رأسها لقريش ، وهو ما لاحظناه في موقف الانصار أيضا بعد وفاة الرسول وهم يمينو الاصل . واخيرا هناك سبب بالغ الاهمية للانتصار العابر لحركة المتنبئين فحسب ، بل ولاندلاع الردة بصفة عامة والتي رافقت في الغالب حركة التنبؤ بصفة مباشرة ، وهذا السبب هو اشتغال قبائل البدو على الخصوص للصلاة ، وجل القبائل

الزكاة أيضا ، ومن الواضح أن زعماء القبائل وملوك الدواب الوفيرة هم الذين تضايقوا قبل غيرهم من فريضة الزكاة على ضالة مبالفها ، فدفعوا بالجماهير الفقيرة الى تلبية نداء المتنبيين والمتمردين وهما منهم انهم يحفظون بذلك مصالحهم .

ومهما يكن من شيء ، فان وفاة الرسول عليه السلام عقبها ارتداد يكاد يشمل جميع العرب حتى لم يبق من المراكز التي احتفظت باسلامها جملة سوى مكة ومنطقة ثقيف .

ويبدو ان اخراج الانصار من الخلافة شجع معظمهم على الارتداد ايضا ، او الوقوف موقف التريص ، بالرغم من مبايعتهم ابا بكر ، امّا قريش فتتفق الروايات على ان الفضل في نجاتها على الاسلام يرجع الى سهيل بن عمرو العامري الذي خطب في قريش خطبة شبيهة بخطبة ابي بكر في المدينة ، ومما قال فيها : يا اهل مكة لا تكونوا آخر من اسلم ، واول من ارتد ، وتلا آيات من القرآن ، وذكرهم بحديث نبوي يقول : « قولوا معي لا اله الا الله تدن لكم العرب ، وتؤدي اليكم العجم الجزية ، والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله فمن يبين مستهزىء ومصداق ، فكان ما رايتم فو الله ليكون الباقي » .

وفي ثقيف القى عمرو بن العاص خطبة مماثلة ، فكان لها ما كان لخطاب سهيل من وقع ايجابي ، وقد تنبأ الرسول عليه السلام بموقف سهيل هذا في مكة .

اما ظروف حرب الردة ، فممنشؤها امتناع القسم الاكبر من العرب ، من اداء الزكاة وقد قبلوا الصلاة ، فقرر ابو بكر قتله المرتدين ، وكان رده على من قال له : كيف تقاتل الناس وهم شهدوا ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، هو قوله : لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله (ص) لقاتلتهم عليه ، وجادله في المسألة عمر وابو عبيدة وآخرون ، وقال له عمر : تالف الناس وارفق بهم ، فانهم بمنزلة الوحش ، فأجابته ابو بكر : رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك . اجبار في الجاهلية وخوار في الاسلام ؟ قد انقطع الوحي وتم الدين ، اينقص وانا حي ؟ والله لاجاهدنهم مهما استمسك السيف في يدي وان منعوني عقالا .

ويبدو أن إباكر اعتبر قضية الزكاة مصيرية ، وإن امتناع العرب عن أدائها والتسامح إزاءهم بشأنها سيفتح بابا للاستخفاف بالمسؤولية القاعدية ومسؤولية الدولة ، كما سيضعف من كيان المجتمع الذي بني على التضامن والعدل الاجتماعي ، وبالتالي سيحطم منذ البداية ركنا أساسيا من الاسلام قد يؤدي الى هدم سائر الأركان ، على أن جيوبا اسلامية ضعيفة العدد بقيت قائمة او مترددة وسط عدد من القبائل المرتدة ، ولذلك قرر أبو بكر أن يستعين بهذه الجيوب على ضرب المناطق المرتدة، وانتظر أبو بكر رجوع أسامة بن زيد من غاراته بالبقاء فخلفه على المدينة ليستريح بجيشه ويكون ردعا لها .

وكانت مجموعات من عبس وذبيان قد نزلت بالإبرق شمال المدينة (20) ، ومجموعات أخرى من القبيلتين وهما تجاوران المدينة شمالا وشرقا قد نزلت مع طائفة من أسد وكنانة بذى القصة الواقعة في طريق الإبرق (ابرق الربرة) على نحو 40 كلم من المدينة (21) . وبعد استراحة جيش أسامة خرج أبو بكر باتجاه ذي القصة حيث كانت هذه الجموع تهم بالزحف على المدينة للقضاء على الصحابة والاسلام . وما كاد أبو بكر يفادر المدينة حتى كرت فئات من هؤلاء المرتدين على المدينة لمهاجمتها ، وكان أبو بكر قد اتخذ الاحتياطات لمواجهتها ، ثم هاجم الجموع المذكورة في ذي القصة بعد انقاز المدينة ، وأحرز المسلمون هناك انتصارا كان له وقع معنوي بالغ في الظروف الصعبة التي يجتازونها ، وفي ذي القصة بالذات ، تولى أبو بكر مهمة توزيع الجيوش والقيادات التي ستنشب في شبه الجزيرة لمحاربة المرتدين في وقت واحد حتى لا تترك لهم فرصة التضامن وتفاجئهم في وقت أمنوا جانب الزحف الاسلامي، وهكذا عقد أحد عشر لواءا لأحدى عشرة فرقة .

1 - خالد بن الوليد لمواجهة طليحة المتنبئ في أسد ، ومالك بن نويرة في تميم .

2 - عكرمة بن أبي جهل لمواجهة بني حنيفة ومتنبئهم مسيلمة .

(20) ابرق الربرة (بفتح الراءين) مكان تابع لارض ذبيان وقد حوله أبو بكر مريضا للغيل (ياقوت ، مادة ابرق الربرة) .

(21) انظر : مادة قصة معجم ياقوت .

3 - شرحبيل بن حسنة لمساعدة عكرمة ثم للتصدي لقضاعة في الشمال الغربي .

4 - المهاجر بن بي أمية لمواجهة الاسود العنسي باليمن ومساعدة بعض العمال هناك على ان يتوجه بعد ذلك الى كند حضرموت .

5 - خالد بن سعيد بن العاص الى مشارق الشام .

6 - عمر بن العاص الى قضاعة مع الاستعانة بشرحبيل .

7 - حذيفة بن محصن (لدبا) بفتح الدال ، وهي سوق بعمان (بضم العين) ، ويظهر ان عكرمة قد كلف بمهمة مماثلة في نفس المنطقة ، وسيعينه أبو بكر والبا عليها .

8 - عرفجة بن هرثمة الى مهرة ، وهي بين حضرموت وعمان .

9 - معن بن حجاز (او طريفة بن حجاز) الى سليم وهوزان وهم يجاورون المدينة شرقا وجنوبا .

10 - سويد بن مقرن الى تهامة اليمن .

11 - العلاء بن الحضرمي الى البحرين .

وبتتبع هذه السلسلة من التعيينات والمناطق يتضح انه تم عمليا تطويق جزيرة العرب بالجيش من جميع أطرافها . ومع قلة اعداد الجند فان الجيوش الاسلامية الباقية مساندها في عين المكان . ويكفي ان تتسامع القبائل بانتصارات اولية للمسلمين لتحث الصدمة النفسية مفعولها في الآخرين الذين ليست لهم عقيدة تجابه عقيدة الاسلام ، ولا قوة منظمة كتنظيمه .

وزود أبو بكر كل القواد المذكورين بعهد من نص واحد يتضمن حدود مهمتهم وما على الاطراف المعادية من التزامات (22) ، كما بعث

(22) ابن خلدون تاريخ : 1 ، 876 .

بكتاب الى جماهير العرب مسلمين وغيرهم ، يذكرهم مهمة القواد المذكورين (23) .

وقد وفق خالد في اخضاع بني اسد واهل اليمامة حيث كان عكرمة هو الذي كلف ببني حنيقة ، وأخضع المرتدين من تميم وقتل مالك بن نويرة ، بينما كلف عكرمة بالالتحاق بحذيفة وهرمة في عمان ومهرة على ان يتولى التنسيق بينهما (24) . وكان القضاء على حركة الاسود من عمل فيروز الديلمي عامل صنعاء . اما المهاجر فتولى قتال المرتدين بين نجران واقصى اليمن ، ثم توجه الى حضرموت لقتال كندة التي توجه اليها عكرمة ايضا ، وبتعاون الجيشين اللذين يقودهما المهاجر وعكرمة تمت هزيمة كندة ورجوعها الى الاسلام (25) .

وادی العلاء الحضرمي مهمته في أرجاع البحرين الى الاسلام بعد جهود مفضية ، بينما تولى خالد ابن الوليد تعقب الشوار من هوازن ، وغطفان وسليم وطيب وأسد الى أن قضى على مقاومتهم (26) ، وكذلك قام سائر القواد بما عهد اليهم من مهمة محاربة للمرتدين واستخلاص الزكاة حتى تم اخضاع سائر شبه الجزيرة ، مع نهاية السنة الحادية عشرة (27) أي بعد صراع استمر حوالي عشرة أشهر، وبذلك تكون سياسة أبي بكر القائمة على الضرب السريع واستغلال الجيوب الموالية وتحقيق التكاثف بين الجيوش في منتهى الفعالية والحكمة خصوصا وان هناك أجهزة إدارية وسياسية كانت قائمة في الأقاليم من أيام الرسول عليه السلام ، ولو استمع أبو بكر الى رأى مستشاريه في التريث والترصص لاتاح للاعداء فرصة الانقضاض الساحق على ما بقي من معاقل الاسلام .

مواجهة الفرس وحلفائهم بالعراق ، ومواجهة البزنطيين الشام

لم تكن الحالة في الامبراطورية الفارسية بأحسن منها في بلاد العرب وان كانت مشكلات المجمعين مختلفة ، ذلك ان الساسانيين بعد ان ردهم

(23) ن. م. ص : 868 .

(24) ن. م. ص : 886 .

(25) الكامل : 2 ، 259 .

(26) ن. م. ص : 252 .

(27) ابن خلدون : 2 ص : 872 .

هرقل على أعقابهم من مصر ، ووقف على أبواب عاصمتهم المدائن حيث تم قتل كسرى الثاني بيد ابنه قباد بعد سنوات قليلة من الهجرة الى المدينة (28) . بدأوا يشهدون أحداثا دامية داخل الدولة والعرش الى حين بدأ الزحف الاسلامي على اطراف الامبراطورية . **وكمظهر للانهييار السياسي الذي وصل اليه الساسانيون قبل التدخل الاسلامي ، يكفي ان يشار هنا الى ان عشرة ملوك تعاقبوا على الحكم في ظرف 23 عاما تقريبا منذ البعثة النبوية ، وقد قتلوا كلهم ما عدا واحدا لقي مصرعه في طاعون جارف (29) . وشارك في تردي الاوضاع وحك المؤامرات رجال الدين والنبلاء وكبار موظفي البلاط وبعض افراد الاسرة الساسانية ، وفي الوقت الذي تولى فيه يزديجرد الثالث آخر الساسانيين (632 - 651 م) في اواخر ايام الرسول (ص) كانت الاوضاع كلها تنذر بنهاية الحكم الساساني ، وكل ذلك الى جانب التمزق الاجتماعي الناشيء عن وجود مؤثرات ونزعات دينية او مذهبية، بينها ما يجذب الانحلال كالمذهب المزدكي. وهناك النصرانية والمجوسية والزرداشتية وغيرها مما لا يسمح بتناسق عقائدي ، وحقا ان الاوضاع الداخلية كانت تسير لصالح العرب . ولكنهم سيلاقون على اية حال مقاومة طويلة الامد تناهز عشرين سنة بمقتل يزديجرد ودخول بقايا الامبراطورية الفارسية في الحكم الاسلامي ، لكن الحضارة والمؤثرات الساسانية ، ستقدم للشعب العربي اجمل هدية يقدمها شعب مغلوب الى شعب غالب .**

وستستفيد شعوب الامبراطورية الساسانية السابقة بدورها من مؤثرات الاسلام وعبقريته الحضارية .

ويظهر ان تفكير العرب في فتح العراق كمنطلق لفتح باقي الامبراطورية الفارسية يرجع اضافة الى الظروف الداخلية لهذه الامبراطورية ، الى ما يلي :

(1) وجود اغلبيية من العنصر العربي بالمنطقة بدأت تستثقل الحكم الساساني حتى ان عرب العراق كانوا يعانون من قهر القائد هرمز ويكرهونه (30) .

(28) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية : 1 ، 107 .

(29) ابن خلدون م . م . ص : 367 - 370 .

(30) ابن خلدون ، تاريخ : 2 ، 888 .

(2) تمكين الخزينة الاسلامية من سوار جديدة بالاضافة الى استغلال الحماس الديني الذي استعاده الصف الاسلامي على اثر انتصارات للمسلمين فى حروب الردة . وبالتالي فان تعزيز الجيش الاسلامي بالمزيد من العناصر التي رجعت الى الاسلام ثم قيامه بعمليات الجهاد فى العراق سيمكنه من غنائم تزيد من تحمسه لتحرير العراق وغزو سائر الامبراطورية الفارسية ، وبالتالي فان فى كل هذا كسبا للاسلام ماديا ومعنويا .

(3) وجود قوات محاربة باليمامة بقيادة عسكري ذى كفاءة عليا هو خالد بن الوليد الذي وفق ايما توفيق فى ردع حركة الردة ، وكان قريبا من مشارف العراق .

وهكذا فان طلائع الجيش الاسلامي تحركت مباشرة من اليمامة ، وقيل ان خالد بن الوليد انتقل الى المدينة ، ومن هناك كلف بنقل الحرب الى العراق ، وكان ذلك فى اول شهر من السنة 12 للهجرة (31) . على ان هذه الحملة سبقت بغارات تولاهها المثنى بن حارثة الشيباني برغبة منه وباذن من الخليفة ، ثم امره ابو بكر ان ينضم بانصاره الى خالد بن الوليد وكتب الى زعماء آخرين من التخوم الشمالية بنفس الغرض فتكاملت اعدادهم ثمانية آلاف فارس ، ومع خالد عشرة آلاف ، وكان المثنى فى مقدمة الجيش ، واحتفظ خالد بالقوة الاحتياطية ، ثم اتجهوا عبر منطقة الكويت الحالية باتجاه الابله قرب البصرة ، غير ان الروايات تختلف بعد ذلك حول المراكز التي مر بها (33) . وواجهته بالمقاومة او بطلب الصلح ، وعلى كل ، فقد كانت وجهته هي الحيرة التي كانت عاصمة اللخمييين التابعين للفرس .

وتواعد خالد مع المثنى ومع عدى بن حاتم الذي كان يقود كتيبة اخرى على اللقاء فى الحفير . واثناء ذلك سقطت بضعة مراكز فى ايدي المسلمين ، بانقيا وهي على ضفة الفرات وباروسيمما واليس (بضم ثم بفتح اللام المشدد) وعلى الفرات التي قال عنها ياقوت انها فى اول ارض

(31) ابن الاثير الكامل : 2 ، 261 . الطبري : 4 ، 32 .

(32) بلاذري ، فتوح البلدان ، ص : 337 . ابن الاثير : 2 ، 261 . ابن خلدون ص : 2 ، 887 .

المراق من ناحية البادية (33) . والابلة (بضم الهمزة والياء وفتح اللام مشددا) وهي من المراكز الغنية اقتصاديا قرب البصرة ، وقد تم فتح هذه المراكز بيد قواد تابعين لخالد ، وكان الفتح صلحا على مبالغ معينة (34) . وكان الامبراطور اردشير يتلقى انباء الزحف العربي ، والحفير يومئذ مركز عسكري بالغ الاهمية يراقب تحركات العرب جنوبي العراق ، ولذلك قرر مواجهة الجيش الاسلامي بجيش قوي بقيادة هرمز الذي كان يتولى في نفس الوقت قيادة الاسطول الفارسي في الخليج ، والقوات البرية على الحدود الجنوبية ، وقد اقترن الجند الفارسيين بالسلاسل تجنبا للفرار . ووقعت مبارزة بين خالد وهرمز أدت الى مقتل هذا الاخير واستيلاء خالد على سلبه ، وسميت الواقعة بذات السلاسل ، ولذلك تكون الخسائر البشرية في صفوف الفرس الذين تعقبت فرق من المسلمين ، فلولهم ، وحصل هؤلاء على غنائم هامة حيث ارسلت اخماسها الى الخليفة . وكانت المواجهة حتى الآن مقصورة على الجيش لان المسلمين وجهت اليهم تعليمات خلافة بعدم التعرض للفلاحين (35) . الذين اذعنوا للجزية حفاظا على اراضيهم .

وتتابعت الفتوح والمعارك بعد ذات السلاسل :

1) وقعة الثني (بشد الياء) وهو كل نهر عند العرب ، وسببها تجمع امدادات الفرس وجموع من عرب تغلب وبني بجير بمكان شرقي الرصافة يدعى بالثني (36) . وهاجمهم الجيش الاسلامي بقيادة خالد ، فقتل منهم اعدادا عظيمة قيل بلغت ثلاثين الفا وسبي اسرهم وكان بينهم ابو الحسن البصري الذي سيصبح له شأن كبير في عالم الفكر .

2) وقعة الولجة (بفتح اللام) وهي مركز بضواحي الحيرة تجمعت فيه امدادات من الفرس وجموع من العرب وبعد قتال عنيف بالمكان بدأت جموع الفرس تنسحب ، فوجدت كميناً نصب في كل من الجهتين اللتين يمكن الانسحاب منهما .

(33) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة اليس .

(34) انظر : البلاذري : م . م . وقيل ان الابلة لم تفتح في هذه المعارك بل تاخر فتحها الى عهد عمر .

(35) ابن الاثير : 2 ، 265 . الطبري : 4 ، 7 .

(36) ياقوت ، مادة الثني .

وأفلت القائد زغار الفارسي ولكنه مات عطشا في البادية ، كذلك سببت ذراري المقاتلة ، وصولح الفلاحون على الجزية بعد ما تكبده من خسائر .

(3) وقعة الیس علی الفرات وقد سبقت الإشارة إلى افتتاح الیس صلحا وسببها أن نصاری العرب من بکر ، والذین وقع القتل فیهم خلال وقعة الولجة استنجدوا بالفرس للاخذ بالثار ، ووضعوا أنفسهم رهـن إشارة القائد الفارسی جاذویه جابان فی انتظار امدادات من اردشیر الذي كان مریضا فلم یمدهم بشيء ، فهاجمهم خالد حول نهر الفرات وكانوا يستعدون لتناول طعامهم فأصاب منهم حتی بلغت قتلهم آلافا ترفعها الروایة الاسلامیة إلى سبعین ألفا (37) . وجرت دماؤهم غزيرة فسمي المكان بنهر الدم ، وغنم المسلمون غنائم عظيمة ثم وجه خالد بخبر الفتح والاحماس إلى أبي بکر الذي قال عندئذ : عجزت النساء أن یلدن مثل خالد .

(4) فتح الحيرة .

بعد أن أتم خالد تصفية المقاومة بالیس ، خرب هذا المركز واستولى على أموال سكانه ، ووضعها مع الجند فی سفن باتجاه الحيرة مروراً بامعیشیا التي حصلوا فیها على أموال عظيمة . وقام مرزبان بقطع الماء عن السفن حتی وقفت على الارض الجافة ، بينما حشد الفرس جيشهم عند الغریبین وهما بناءان كالصومعتین بظاهر الكوفة (38) لهما قصة أدبیة معروفة ، استخدم خالد الخیل لمواجهة المقاومة ، وبدأ افتتاح ضواحي الحيرة حصنا حصنا دارا دارا إلى أن ادى حکامها العرب بقيادة ایاس ابن فبیصة ، وحماتهم الفرس لطلب الصلح الذي تم فی ربيع الاول من السنة الثانیة عشرة . وقد أعید افتتاح الحيرة مرتین أخریین بعد وفاة أبي بکر . اما مبلغ الجزية فقدر بمائة او مائتین وتسعين ألف دينار (40) . وتوارد الدهاقین وهم كبار الملائکین من ضواحي الحيرة وما وراءها شمالا یطلبون

(37) الكامل : 2 ، 265 . ابن خلدون : 2 ، 890 .

(38) انظر : تعليق الكامل ، ص : 265 .

(39) ن. م. ص : 267 . انظر بشأن فتح الحيرة الطبري ، تاریخ : 4 ، 15 - 17 .

(40) م. م. ابن خلدون : 2 ، 892 ، وانظر دحلان ، الفتوح الاسلامیة : 1 ، 22 .

الدخول في طاعة الجيش الفاتح . فازدادت ثروات الخزينة الاسلامية
أضعافا مضاعفة ، وكتب خالد الى بلاط الفرس وأمرائهم يدعوههم الى
الاسلام او الجزية او الى تحمل مسؤوليات الحرب ، وكان البلاط
الفارسي يعيش أزمة خطيرة بموت اردشير وعدم وجود مرشح من أسرته .

(5) فتح الانبار ، وهي مدينة على شاطئ الفرات غربي بغداد (41) .
وقد كان هذا المركز مخزنا للحبوب والتبن ، وحاصرته مقدمة الجيش
التي كان على رأسها الاقرع بن حابس ، ثم رشق المسلمون القوات
المحاصرة حتى نفاوا الف عين كما قالوا . وتمكنوا من اجتياز الخندق
الذي ملأوه بابل نحروها لهذا الغرض ، وبذلك تم لهم الاستيلاء على
الانبار التي عين لادارتها الزبرقان بن بدر .

(5) فتح عين التمر ، وهي قرية من الانبار غربي الكوفة (42) .
وتتوفر على تمر كثير يصدر الى خارج العراق ، وفيها تجمع الفرس بقيادة
مهران بن بهرام والعرب النصاري بقيادة عقة بن ابي عقة وبينهم تغلب واياذ
والنمر (43) ، وقد انهزمت هذه الجموع من غير قتل بعد ان أسر خالد
زعيمها عقة ثم قتله ، كما قتل كل الذين تحصنوا في حصن عين التمر .
وسبي غلمانها وجددهم في الكنيسة يتعلمون الانجيل ، ومنهم سيرين ابو
محمد سرين العالم المعروف .

(6) وقعة دومة الجندل وهي مركز قوي في تخوم الشام تجاه
المدينة وتقطنها تنوخ وغسان وغيرها ، وكانت قد صالحت المسلمين في
عهد الرسول ثم نقص اكيدر الصلح وهم بقتال القائد المراقب للمنطقة
عياض بن غنم ، فاستنجد بخالد الذي قتل اكيدر ثم افتتح الحصن وسبي
ذريته (44) . وافتتاح دومة الجندل ذكر هنا كمجرد عملية تولاهها خالد
اثناء فتح العراق ، والا فهو تابع للشام .

وبينما كان خالد بن الوليد يستقر بدومة الجندل حاول الفرس

(41) ياقوت ، مادة انبار ، وتوجد الانبار ايضا بایران ، اما انبار العراق المقصودة هنا
فقد اتخذها العباسيون عاصمة قبل بناء بغداد ، وقد بقيت بمعنى انبارها .

(42) ن . م . مادة عين التمر .

(43) ابن خلدون : 2 ، 894 . ابن الاثير : 2 ، 26 . دحلان : 1 ، 21 - 22 .

(44) الكامل : 2 ، 270 . ابن خلدون : 2 ، 895 . ياقوت ، مادة دومة الجندل .

بالتعاون مع العرب الموالين لهم أن يهاجموا الحيرة ، ولكن الحامية المحلية ردتهم على أعقابهم ، بينما حضر خالد للقائهم بالحصيد ، فهزمهم شر هزيمة بمساعدة قواد آخرين كالقعقاع بن عمرو وغيره . وتابع خالد تعقب نصارى العرب وجيوش الفرس حتى الرصافة التي كانت تسمى الرضاب آنئذ (45) . ومنها اتجه الى الفراض (بكسر الفاء) ، وهي فيما بين البصرة واليمامة من ديار بكر (46) . حيث تخوم الشام والعراق والجزيرة شرقي الفرات ، فاحتشدت جيوش الفرس والروم والعرب والنصارى متضامنة ، فهزمهم الجيش الاسلامي هزيمة منكرة . وفى اواخر ذي القعدة من السنة الثانية عشرة توجه خالد خفية من ممالك غير مطروقة الى مكة لاداء شعائر الحج ، ولم يخبر بذلك ابا بكر حتى قضى حجه ، فعائبه شبه عقاب بنقله الى الشام ، وقبل نقله هذا قام خالد بغارات متعددة على السواد حتى يعمل على ضرب المراكز الاقتصادية التي يتحالف فيها الفرس ونصارى العرب .

مواجهة البزنطيين وحلفائهم بالشام

حقق الامبراطور البزنطي هرقل (610 - 641 م) انتصارات ساحقة على الفرس فى مصر وحتى داخل الامبراطورية الفارسية ، غير انه فوجيء بأحداث الزحف العربى على الشام فى اواخر خلافة ابي بكر ، وبغزو « اوستروكورسكي » (47) انهيار الحكم البزنطي بالشام والمقاطعات الشرقية من الامبراطورية ، الى اهمال القيام بتجهيزات دفاعية ملائمة ، والى تضعف الادارة نتيجة ضغط كبار الملاكين الذين سهلوا دخول الغزاة العرب على الاخص الى مصر ، بينما يغزو (دولاندولان) هذا الانهيار الى حتمية القدر لدى هؤلاء الفاتحين ، والتي تمكنهم من تحدي الاخطار ، لان كل حادث يحدث انما هو بارادة الله (48) . والحق ان لكل من هذه اثره فى تسهيل افتتاح العرب للشام ، ولكنها مجتمعة غير كافية ، لان هناك التنظيم المتقن الذي وفق اليه العرب ، والتحرك

-
- (45) ابن خلدون 2 ، 894 . ابن الاثير 2 ، 269 . دحلان 1 ، 21 - 22 .
(46) الكامل 2 ، 270 . ابن خلدون 2 ، 895 . ياقوت مادة دومة الجندل .
(47) G. Ostrogorsky, Histoire de l'état byzantin, P 140
(48) de l'Andelyn, Histoire aniverselle, P 220

السريع للجيوش العربية ، والضرب فى واجهات متقاربة فى وقت واحد ، والروح الدينية التي تحمى هذه الجيوش للجهاد ، وانتماء المحاربين العرب الى مجتمع البدو فى اغليبيتهم الساحقة ، وهم قوم محاربون بطبيعتهم ، واستخدام القواد عناصر من الفريق المفلوب للتعاون معه على كشف اخبار العدو وتحركاته ، واخيراً ، فهناك ميل من اغلب عرب الشام الى استقبال الغزاة من اخوانهم بقلب مفتوح ، او الى عدم الاستماتة فى قتالهم باصرار ، ذلك ان اليعاقبة وهم نصارى الشام يختلفون عن البزنطيين الكاثوليك فى كونهم يقولون بالطبيعة الواحدة ، وهذا ادى الى اضطهادهم باستمرار من لدن الكنيسة الرومانية والحكام البزنطيين .

واخيراً ، هناك موقف العناصر اليهودية التي تعادى الحاكم الروماني بطبيعتها والتي تعيش تحت قهره ، فرات فى قدوم الفاتحين العرب مخلصاً لها من كربتها مثلما حدث فى أكثر من جهة فتحها جيش اسلامي او حكمها مسلمون .

والواقع ان عرب شبه الجزيرة ، سواء ادخلوا العراق او الشام ، فهم يدخلون ديارهم ، حتى وان وجدوا مقاومة يتولاها اخوانهم ضدهم لان هذه المقاومة حدثت من قبل داخل شبه الجزيرة ، بل حدثت ضد شخص محمد الرسول عليه السلام فى عقر داره ، ولذلك لا عجب ان تنهار المقاومة فى الشام بسرعة مثلما انهارت فى العراق بسرعة ، وهذا برغم ما كلفت العرب من جهود .

وقد عرفنا ان التحرك العربي الى الشام بدأ من عهد الرسول لانها اقرب الى المدينة وحماية تخومها دون حماية تخوم العراق التي كان الفرس يراقبونها برا وبحرا ، غير ان وفاة الرسول (ص) اوقفت عمليات التدخل الاسلامي بالشام مثلما اوقف هذا التدخل عمليات فتح الشطر الجنوبي من العراق ، حتى اذا حلت السنة الثالثة عشرة للهجرة بعد مضي زمن على تصفية امر الردة والتقدم داخل الجبهة العراقية استعد الجيش الاسلامي للزحف على الشام ، وكان أبو بكر قد تهيأ لحرب الشام منذ بدأ الزحف على العراق ، فاستقر سكان الطائف ومكة واليمن ونجد والحجاز عامة للجهاد (49) .. وعين على الجيش خالد بن سعيد بن العاص ، ولكن

(49) انظر : خطاب أبي بكر الى الشعب العربي فى الفتوحات الاسلامية : 1 ، 36 .

هذا الجيش لم يقد بمهمته فى الوقت المذكور لاسباب قيل انها تتعلق بموقف خالد هذا من بيعة ابي بكر (50) ، وفى صفر من سنة 13 اعيد تنظيم الجيش وقيادته ، حيث وزعها بين ثلاثة قادة ، اقدمهم خالد بن سعيد ، ثم شرحبيل بن حسنة ، وعمرو بن الناصر (51). وعسكر الجيش بالجرف على اميال من المدينة ، ثم تحركت الفرق تباعا وتلاحقت بها اخرى بقيادة امراء آخرين منهم يزيد بن سفيان ، كما كلف ابو عبيدة بن الجراح فى البداية بالقيادة العامة ، ولكنه اعتذر عن تحملها مكتفيا بمهمة الارشاد الديني للجيش (52) . ثم اسندت القيادة العامة الى يزيد بن سفيان فى النهاية (53) بعد ان تولاه لفترة محدودة خالد بن سعيد (54) ، على ان ابا عبيدة سيساهم فى العمل العسكري المباشر بالشام فى هذه المرحلة .

ويظهر ان الاصطدام بالروم حدث فى جهات متفرقة فى وقت متقارب ، لان الجيش الاسلامي توزع فرقا مع معرفته للميدان . ومن المواجهات الاولى تصدى خالد بن سعيد لجموع العرب المواليين للروم كتنبوخ ولخم وغسان وكتب والضاربين فى تخوم الشام . فانهمزوا امامه من غير قتال ، فاحتل مواقعهم . كما وقعت مواجهة بين جيش يزيد والروم باحدى قرى غزة ثم بالعربة من ارض فلسطين حيث احرز الجيش الاسلامي انتصارات اولية . واخيرا غامر خالد بن سعيد بالتوغل اتجاء دمشق فطوقته معسكرات الروم وسدت الطريق دونه ، ولولا عكرمة بن ابي جهل وجيشه الذي حمى ظهر خالد بن سعيد لوقع فى قبضة الروم الذين قتلوا ابنائه ، وهكذا لم بدا من اللحاق بالمدينة مستأذنا الخليفة .

اما هرقل فلم يبق مكتوف الايدي بل قوى اجهزته الدفاعية فى كل من دمشق وحمص وغيرها ، ونزل هو نفسه بحمص ، مشيرا على كبار المسؤولين فى بلاطه ان يقبلوا الصلح مع العرب حتى لا يتورطوا فى حرب خاسرة ، اذ لا شك وصلتهم انباء انتصارات العرب فى العراق ، غير ان المسؤولين رفضوا النصيحة فلم يسعه الا مسايرتهم ، واثناء هذه الاحداث

(50) الكامل : 275 . ابن خلدون : 2 ، 897 .

(51) بلاذري ، فتوح ، ص : 149 .

(52) دحلان ، فتوح : 1 ، 36 . بلاذري ، فتوح ، ص : 149 .

(53) بلاذري ، ص 150 .

(54) الكامل : 2 ، 276 .

تقوت حشود العرب بامدادات اضافية ، وعندئذ أسندت مسؤولية التنسيق الى ابي عبيدة بن الجراح الذي كان موضع ثقة ابي بكر ، على غرار خالد في العراق وفي الوقت الذي تجاوزت فيه قوات العرب عشرين الفا ، حشد هرقل جيوشا تضمنه تقدرها الرواية العربية بما لا يقل عن مائتي الف (55) ، تفرق الجيش العربي اربع فرق ، احداها بقيادة ابي عبيدة في الجابية جنوب دمشق ، والثانية بقيادة يزيد في البلقاء ، والثالثة بقيادة شرحبيل في الاردن ، وقيل في بصرى من سوريا ، والرابعة في العربية شرق فلسطين . اما الروم فحاول هرقل توزيعهم حسب المعسكرات العربية (56) ، فواجهت هذه المعسكرات قوات ضخمة لا يمكن أن تصمد لها طويلا ، فأشار عمرو بن العاص عليهم بتجميع قواتهم ، ثم كاتبوا ابا بكر يصفون وضعية الجيش العربي ويطلبون المدد فأمدهم ابو بكر بقوات اضافية ، وعين عليهم خالد بن الوليد الذي وجهه من العراق ، وكتب اليه ابو بكر خطابا بهذا الشأن ، وأمره بحشد مجموع القوات الموجودة في الجبهة الثانية باليرموك (57) . غير ان خالدا لم ير من اللائق ان يضع نفسه فوق مستوى ابي عبيدة الذي كان يحظى باحترام كبير في المجتمع الاسلامي . فكتب اليه من الشام يضع نفسه تحت امرته وينوه بفضله . بينما كتب ابو بكر الى ابي عبيدة يطلب اليه احترام تعليمات خالد لما له من تجربة عسكرية (58) . وهكذا توجه خالد من العراق يقود جيشا يقدر بستة الاف الى عشرة الاف . وبلغ مجموع الجيش الاسلامي في أعلى التقديرات 46 ألفا ، وجيش الروم 240 ألفا (59) . وتخلف بالعراق من الجيش الاسلامي ما رافق خالدا الى الشام ، وعلى جيش الشام المثني بن حارثة خلفا لخالد . ووجد خالد كل قائد يواجه المعارك لحسابه دون تسانيد ولا تنسيق ، فلما احتشدت الفرق باليرموك والتحق بها خالد ، وجه خطابا حماسيا يدعو فيه الى

-
- (55) الكامل : 2 ، 278 . وعند ابن خلدون : 240 ألفا . والمقدسي 5 ، 184 : 400 ألف . والطبري : 4 ، 31 ، 150 .
(56) ن. م. و. ص :
(57) ن. م. و. ص. دحلان ، فتوحات : 1 ، 39 .
(58) فتوحات دحلان : 1 ، 39 .
(59) ابن خلدون : 2 ، 900 - 901 . ابن الاثير الكامل : 2 ، 279 و 281 . بلاذري فتوح : 184 .

التآزر والتساند (60) ، ثم أشار على القواد ان يتولى كل منهم القيادة العامة يوما وان يتولاها هو لليوم الاول . وبذلك هدهد من نفوسهم حماية الرئاسة وشرف التفوق ، وغض النظر عن تطبيق تعليمات الخليفة بشكل صارم حفظا لوحدة التحرك والمواجهة .

وقام خالد باعادة تعبئة الجيش حول ضفة اليرموك وهو نهر من روافد الاردن فى اتجاه دمشق شمالا وبصرى شرقا . فوزع الجند كراديس اى فرقا تناهز كل منها 1200 محارب ، وبلغ مجموع الكراديس حوالي الاربعين ثم خص كل قائد من القواد الاربعة بقيادة جناح من الجيش ، وفى القلب ابو عبيدة (61) . كما تولى القسس والرهبان تحميس الروم الذين تعبأوا بنفس الطريقة ، عين لهذه المهمة فى الجيش الاسلامي مرشد ديني يدعى القاص ، وكان هو ابو سفيان بن حرب الذي ادى مهمته هذه خير اداء (62) . وما كادت المعركة تنشب حتى فوجيء الجيش بقدوم البريد اى موظف الاستخبارات من المدينة يسر الى خالد وابي عبيدة وفاة ابي بكر وقيام عمر خليفة وعزله لخالد على ان يتولى مكانه ابو عبيدة ويضع خالد نفسه رهن اشارته ، غير ان خالدا احتفظ بسر الخبر وواصل قيادة الجيش فى انتظار تحقيق نتيجة ايجابية ، وقد كان تعليقه على قرار عزله قوله :

« انا لا اقاتل من اجل عمر » . وهناك رواية شاذة ساقها الطبري تفيد ان خالدا واصل مهمة القيادة العامة حتى فتح دمشق ، فأعلن ابو عبيدة عزله (63) .

وكانت مبادرة الهجوم من الجيش الاسلامي بأمر من خالد الى عكرمة ابن ابي جهل والقعقاع بن عمر ، وهما قائدا مجنتي القلب (64) اى جناحيه . وتحدث الرواية الاسلامية (65) هنا عن خروج جورج أحد قواد البزنطيين من كتيبته حيث طلب خروج خالد اليه ، ثم استفسره عن سر نجاحه فى

(60) ابن الاثير ص : 282 . ياقوت ، معجم مادة اليرموك .

(61) ابن الاثير ، ص : 282 والطبري : 4 ، 33 ، يذكر توزيعا ادق .

(62) ابن خلدون : 2 ، 901 .

(63) الطبري : 4 ، 55 .

(64) ابن الاثير ، ص : 282 . الطبري : 4 ، 34 .

(65) الكامل : 2 ، 283 .

المعارك ، وعن عروض الاسلام لمن يحاربونه ، حتى اذا اقتنع من خالد بما يرضيه عن هذا الدين ، دخل فى الاسلام فى غمرة الاندهاش الذي عمّت الفريقين .

وساهم فى الصف الاسلامي جيلة بن الایهم ، الامير الفساني قبل ارتداده (66) ، بل قبل اسلامه مباشرة . وقد تظاهر بالتعاون مع الأنصار تعصبا ، ولكن يبدو أنه لم يكن يرى أن المعركة ستنتهي لصالح الروم . كذلك ساهم فى الفريق الاسلامي نساء الجند ، ومن بينهم هند بنت عتبة زوجة ابي سفيان (67) الذي فقد عينه فى هذه المعركة كما قتل القائد جورج ، وفى آخر النهار هاجم خالد مع فريق من جيشه قلب الروم ، فاضطربت صفوفهم وتراجع فرسانهم تاركين الرجالة مخدولين وجلهم فى الخندق الذي اعدوه مقدما ، وبذلك اتيح للجيش الاسلامي ان يهاجم عدوا نحر نفسه بنفسه ، وتختلف هنا تفاصيل هزيمة الروم وهي تبدو اقرب الى المنطق ، من تفسير بروكلمان (68) الذي عزا الهزيمة الى الارمن الحاقدين على الجيش البزنطي ، وكانوا كما قال يؤلفون نصفه فى معركة اليرموك ، واذا اخذ بهذا التفسير - فيجب ان نقيم له نفس الاعتبار فيما سبق وبقي من هزائم الروم وذلك يجافي منطق الاحداث ، وكانت قيادة الجيش البزنطي للبطريرك نيودور وهو آخر هرقل وتسميه المصادر العربية تدارق ، اما هرقل ، فكان يقيم فى هذه الاثناء بانطاكية يتتبع الاحداث ، حتى اذا بلغته انباء هزيمة جيشه انسحب نهائيا الى القسطنطينية (69) . وتضطرب الروايات حول احدث اليرموك ، والصحيح انها كانت سنة 13 هجرية وقبل فتح دمشق فى جميع الاحوال (60) .

وفاة ابي بكر :

كانت وفاة ابي بكر على اثر مرض لم يبلغ به اكثر من ايام معدودة لا تعدد الاسبوعين (71) . اصابته خلالهما حمى يحتمل ان تكون كالتسي اصاب الرسول (ص) ذلك ان ابا بكر قد تناول على بعض الروايات

- (66) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص : 185 .
(67) بلاذري : ن . م . ص : 184 . وابن الاثير الكامل : 2 ، 284 .
(68) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية : 1 ، 113 .
(69) بلاذري ، م . س . ص : 186 . المقدسي ، البدء والتاريخ : 5 ، 185 .
(70) انظر : مزيدا من تفاصيل اليرموك فى الطبري : 4 ، 31 - 40 .
(71) ابن عبد ربه ، العقد : 5 ، 15 . المقدسي ، م . س . ص : 167 .

طعاما مسوما يسري مفعوله ببطء ولمدة شهور ، وان عملية الاغتيال هذه قام بها بعض اليهود فى هذه المرة ايضا (72) . ونفس الرواية تؤكد ان اكتشاف التسميم ثبت على يد الطبيب الحرث بن كدة (73) الذي تناول من الطعام ذاته مع ابي بكر ولقي نفس المصير .

واحدثت وفاة ابي بكر حزنا عميقا فى الاوساط الاسلامية ، فقد كان هذا الرجل متزن الشخصية الى درجة نادرة بين الزعماء العرب . والحق ان صحبته الطويلة للرسول قبل البعثة ، وبعدها جعلت منه سياسيا بعيد النظر وقائدا محنكا وانسانا عميق الثقة بالله خدوما للمجتمع الذي أسند اليه رعايته ، ويندر جدا فى اثنائى العالمى كله ان يحقق قائد أمة ما حققه ابو بكر فى مدة سنتين وبضعة أشهر هي كل الفترة التي قضاها خليفة ، فقد استعاد الاسلام وحدته فى جزيرة العرب ، بل وجوده كله تقريبا ، وتخطى الزحف الاسلامى حدود هذه البلاد الى اجزاء شاسعة من العراق والشام ، وبدأت تظهر كفاءات ادارية وعسكرية يتقوى مردودها مع الايام بحسب ما يسند اليها من مهمات ، وضبطت الشؤون الاقتصادية ضبطا محكما بالرغم من بساطة الوسائل وبعد المسافة بين العاصمة واطراف الخلافة ، وأهم من هذا كله ، ان ابا بكر وضع بين يدي خلفه ، كل الضمانات لانجاح مهمته : الاستقرار السياسى ، والنظام الشورى ، والتعامل مع القاعدة رأسا او عن طريق من يصلحون لتمثيلها ، وكل ذلك حسب شريعة القرآن وسنة الرسول . واخيرا ، فقد ترك ابو بكر اطرار امينة فى مختلف المجالات ، وكل هذا سيعطي نفسا نقيا لعمير الذي سيضيف اليه من قوة شخصيته ومهارته وصلابته فى الحق ، ما سيحقق للاسلام مفاخر تاريخية رائعة .

وكما كان الشأن بالنسبة للرسول (ص) ، فان ابا بكر لم يخلف وراءه ما يستحق الذكر ، وكان يتعيش مما فرض له فى بيت المال من قبل ممثلى الامة (74) ، وترك عليه ديونا اوصى ان تؤدى من بيع ارض له ، وقد رثاه علي بن ابي طالب رثاء بليغا اورده ابن عبيد ربه فى العقد الفريد (75) .

(72) عقد : 5 ، 15 . وراجع احداث وفاة ابي بكر فى الصفحات الموالية من نفس المصدر

(73) الطبيري : 4 ، 46 .

(74) الكامل : 2 ، 291 . الطبيري : 4 ، 54 .

(75) ابن عبد ربه ، عقد : 5 ، 17 . وانظر فى الطبيري : 4 ، 47 ، 54 ما يتعلق بتجهيز جنازة ابي بكر ونبذة عن سيرته ومساعدته .